الحوار في المثل القرآني في سورة يس ـ بحث في دور الكلمة

د. مصطفى أحمد قنبر
وزارة التعليم والتعليم العالي ـ دولة قطر

الملخص العربي:

للأمثال مكانتها في القرآن ففضلا عن كثرتها وتنوعها ، فإنها تزخر بعالم فريد من الحكمة والموعظة ، كما أنها تتخطى بالقارئ حدود الزمان والمكان.

وقد حاول الباحث أن يتتبع دور الكلمة في المثل القرآني من خلال الحوار الذي دار بين أصحاب القرية ورسل الله في سورة يس ، وذلك من خلال ما عرض له المفسرون من علة انتقاء الألفاظ وموقعيتها ، وما كان له من أثر في صياغة المعنى العام ، وإفراغ الجهد في استجلاء بعض الدلالات التي سكت عنها المفسرون.

الكلمات المفتاحية:

الحوار ؛ المثل القرآني ؛ الألفاظ ؛ التراكيب ؛ الدلالات.

Abstract :

The dialogue in the Proverb in the Holy Quran in Yassin Sura,

A research in the role of the word.

Proverbs have their status in the Holy Quran. As well as their diversity and frequency, It is filled with a unique world of Admonition and Wisdom. It is surpassed with the reader and the reflecter The limits of time and place.

The researcher tried to follow the role of the word in the Proverbs in the Holy Quran, Through the dialogue that took place between the people of the town and the Messengers of Allah in Yassin Sura,

Through what the Interpreters Show in the Reason for selection of the words and its place in the expressions, and its Effect In The formation of

general meaning, And make maximum effort in explore the meanings which were silent by the Interpreters.

key words:

The dialogue; Proverb in the Holy Quran; Words; Composition; semantics.

مقدمة: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، من نُزِّل القرآن على قلبه ليكون للعالمين نذيرًا ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوتـه إلى يوم الدين. وبعد ،

فلا يزال كتاب الله المعجز المعين الذي لا ينضب ، والمادة الخصبة الثرية للبحث والدرس ، شغل فكر الباحثون ؛ فانبروا لدراسته وفهمه سبرًا لمكنونات أسراره ، وكشفًا لمقاصده الشريفة ، وطرقـه العجيبة والبديعة في التعبير والبيان ؛ وذلك عملا بقوله جلَّ وعزَّ: " كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29) " ص: ٢٩

وقد اجتذبت الأمثال جمرة من علماء الدراسات القرآنية ، لمكانتها في كتاب الله عز وجل ففضلا عن كثرتها وتنوعها ، فإنها تزحز بعالم فريد من الحكمة والموعظة ، والدليل الحسي والبرهان العقلي ، كما أنها تتخطى بالقارئ لها و المتدبر لها حدود الزمان والمكان ؛(1) ليعيش في عالم هذا المثل بكل مكوناته وآفاقه وتجلياته ؛ ولذا وجَّه العليم الخبير إلى تأمل الأمثال والتفكر فيها ، فقال ، فقال:" وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ "إبراهيم:25 ، وقال أيضا" وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " الحشر: 21.

وكان للقرية حضورها المكاني والزماني في المثل القرآني ، من خلال قصة أهلها ودخولهم في حوار مع رسل الله ، الأمر الذي استرعى انتباه الباحث ، خاصة ما لوحظ من تركيز في العرض ، وتعدد في المعاني ، واتساع في دوائر الدلالات. ودفع بالحجج التي أَثْرَتْ الحوار ، وقد لعبت الكلمة أو المفردة دورًا أساسيًا في كل هذا من جهتين:

الأولي: دقة الانتقاء دون غيرها. والثانية: موقعية الكلمة داخل التراكيب.

كان ذلك في الآيات (13ـ19) من سورة يس.

وقد جاء هذا الموضوع الذي وسمته بعنوان: (الحوار في المثل القرآني في سورة يس ، بحث في دور الكلمة) ؛ في المباحث الآتية:

المبحـــث الأول: بين يدي المثل.

المبحث الثانـــي: دور المفردة في الخطاب الدعوى الأوَّليّ ، ومردوده.

المبحث الثالـث: دور المفردة في صياغة موقف المتلقي ، و بناء حججه.

المبحث الرابـــع: أثر المفردة في صياغة حجج المنكرين ودرئها.

المبحث الخامس: الموقف النهائي لأصحاب القرية كما عبرت عنه المفردة.

المبحث السادس: توظيف المفردة في رد الرسل على تهديدات قومهم.

ثم جاءت الخاتـــمة: وفيها أهم نتائج البحث.

وقد جاء الحديث عن القرية في المثل القرآني ـ موضوع البحث ـ في سورة يس ، في قوله جلّ وعلا: " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)" يس: ١٣ ـ 19

المبحث الأول: بين يدي المثل:

افتتحت الآيات الكريمة هنا بالجملة الفعلية: " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ "وهي ذات الجملة التي افتتح بها المثل في سورة النحل إلا أن الأسلوب الذي جاءت فيه الآيات هنا إنشائي والأسلوب في سورة النحل كان خبريًا. وبينما جاء الفعل مسندًا إلى الذات العلية فضرب الله سبحانه مثل القرية في سورة النحل ، أسند الفعل هنا ـ في سورة يس ـ إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم موجهًا من الله سبحانه.

وفي تأويله هذا الإسناد يقول الرازي: " وَفِيهِ وَجْهَانِ ، وَالتَّرْتِيبُ ظَاهِرٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى وَاضْرِبْ لِأَجْلِهِمْ مَثَلًا. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى وَاضْرِبْ لِأَجْلِ نَفْسِكَ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ لَهُمْ مَثَلًا أَيْ مَثِّلْهُمْ عِنْدَ نَفْسِكَ بِأَصْحَابِ الْقَرْيَةِ. وَعَلَى الْأَوَّلِ نَقُولُ لَمَّا قَالَ اللَّهُ: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[يس:3] وقال: لِتُنْذِرَ [يس:6] قَالَ قُلْ لَهُمْ: مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ [الْأَحْقَافِ: 9] بَلْ قَبْلِي بِقَلِيلٍ جَاءَ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ مُرْسَلُونَ وَأَنْذَرُوهُمْ بِمَا أَنْذَرْتُكُمْ

وَذَكَرُوا التَّوْحِيدَ وَخَوَّفُوا بِالْقِيَامَةِ وَبَشَّرُوا بِنَعِيمِ دَارِ الْإِقَامَةِ ، وَعَلَى الثَّانِي نَقُولُ لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ الْإِنْذَارَ لَا يَنْفَعُ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ قَالَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَا تَأْسَ وَاضْرِبْ لِنَفْسِكَ وَلِقَوْمِكَ مَثَلًا ، أَيْ مَثِّلْ لَهُمْ عِنْدَ نَفْسِكَ مَثَلًا حَيْثُ جَاءَهُمْ ثَلَاثَةُ رُسُلٍ وَلَمْ يُؤْمِنُوا وَصَبَرَ الرُّسُلُ عَلَى الْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ ، وَأَنْتَ جِئْتَهُمْ وَاحِدًا وَقَوْمُكَ أَكْثَرُ مِنْ قَوْمِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُمْ جَاءُوا قَرْيَةً وَأَنْتَ بُعِثْتَ إِلَى الْعَالَمِ ،"(2) وقد نقل الشوكاني في تفسيره نفس المعنى.(3)

فعلى الوجه الأول يكون ضرب المثل موجهًا لأهل مكة أو لعامة الناس الذين بعث لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إقامة لدلائل رسالته صلى الله عليه وسلم ، ودفعًا بعدم جهلهم. وهو ما أميل إليه ، وهو ما سبق به العلامة ابن عاشور كما سيأتي. وعلى الثاني يكون مقصد المثل تسلية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وشدًا لأزره ، وهو ما أستبعده لأن في الوجه الأول لا نعدم أن نستشف هذا المقصد ، فضلا عن الإعداد الرباني الدعوي لشخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم في مواجهة صلف القوم وعنادهم وصدهم ، وما يحفل به الخطاب القرآني المباشر من مقاصد التسلية والتقوية للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم.

وفي السياق ذاته يقول أبو السعود في تفسيره: " ضربُ المَثَلِ يُستعملُ تارةً في تطبيقِ حالةٍ غريبةٍ بحالةٍ أُخرى مثلِها كما في قوله تعالى ضَرَبَ الله مَثَلاً لّلَّذِينَ كفروا امرأة نوح وامرأة لُوطٍ ، وأخرى في ذكر حالةٍ غريبةٍ وبيانِها للنَّاس من غير قصدٍ إلى تطبيقِها بنظيرةٍ لها كما في قولِهِ تعالى وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال على أحدِ الوجهينِ أي بيَّنا لكم أحوالاً بديعةً هي في الغرابةِ كالأمثالِ ، فالمَعْنى على الأوّلِ اجعلْ أصحابَ القريةِ مثلاً لهؤلاء في الغُلوّ في الكفرِ والإصرارِ على تكذيبِ الرُّسلِ أي طبِّق حالَهم بحالهم على أنَّ مثلاً مفعولٌ ثان لـ (اضرب) وأصحابَ القريةِ مفعولُه الأوَّلَ أُخِّر عنْهُ ليتَّصل بهِ ما هو شرحُه وبيانُه. وعلى الثَّاني اذكُر وبيِّن لهم قصَّةً هي في الغرابةِ كالمَثَل."(4)

ويعلل الماتريدي في تفسيره أمر الله رسوله بضرب المثل هنا بقوله: "يحتمل الأمر لرسوله بضرب مثل أصحاب القرية لقومه وجهين: أحدهما: أن الخبر قد كان بلغ هَؤُلَاءِ ، أعني: خبر أصحاب القرية التي بعث إليهم الرسل ، وما نزل بهم بتكذيبهم الرسل وسوء معاملتهم إياهم ، إلا أنهم قد نسوا ذلك وغفلوا عنه ، فأمرهم بالتذكير لهم والتبيين ؛ ليحذروا عن مثل صنيعهم وسوء معاملتهم رسولهم. والثاني: يحتمل أن لم يكن بلغهم خبر أُولَئِكَ وما نزل بهم بسوء معاملتهم الرسول ، فأمره أن يعلم قومه ذلك ويبين لهم ، فيسألون عن ذلك أهل الكتاب ، فيخبرونهم بما كان في كتبهم ؛ فيعرفون صدق رسول اللَّه فيما يخبرهم ، فيكونون

على حذر عن مثل صنيعهم ومعاملتهم الرسل ؛ وعلى ذلك تخرج هذه الأنباء والقصص المذكورة في الكتاب على هذين الوجهين ، واللَّه أعلم."(5)

ويقف بنا العلامة ابن عاشور عند نكات لغوية ودلالية وبلاغية حيث يقول يرحمه الله: "وَالضَّرْبُ مَجَازٌ مَشْهُورٌ فِي مَعْنَى الْوَضْعِ وَالْجَعْلِ ، وَمِنْهُ: ضَرَبَ خَتْمَهُ. وَضَرَبْتُ بَيْتًا ، وَهُوَ هُنَا فِي الْجَعْلِ وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا [سُورَةِ الْبَقَرَةِ: 26] . وَالْمَعْنَى: اجْعَلْ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ شَبَهًا لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ. وَلَهُمْ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِـــ اضْرِبْ أَيِ اضْرِبْ مَثَلًا لِأَجْلِهِمْ ، أَيْ لِأَجْلِ أَنْ يَعْتَبِرُوا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ [الرّوم: 28].وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ صِفَةٌ لِـــ (مَثَلَ)، أَيِ اضْرِبْ شَبِيهًا لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ [النَّحْل: 74]. وَالْمَثَلُ: الشَّبِيهُ ، فَقَوْلُهُ: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مَعْنَاهُ وَنَظِّرْ مَثَلًا ، أَيْ شَبِّهْ حَالَهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ بِكَ بِشَبِيهٍ مِنَ السَّابِقَيْنَ ، وَلَمَّا غَلَبَ الْمَثَلُ فِي الْمُشَابِهِ فِي الْحَالِ وَكَانَ الضَّرْبُ أَعَمَّ جُعِلَ مَثَلًا مَفْعُولًا لِـــ اضْرِبْ ، أَيْ نَظِّرْ حَالَهُمْ بِمُشَابِهٍ فِيهَا فَحَصَلَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ اضْرِبْ ، ومَثَلًا بِالِاعْتِبَارِ. وَانْتَصَبَ مَثَلًا عَلَى الْحَالِ. وَانْتَصَبَ أَصْحابَ الْقَرْيَةِ عَلَى الْبَيَانِ لِـ مَثَلًا ، أَوْ بَدَلٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا أَوَّلَ لِـــ اضْرِبْ ومَثَلًا مَفْعُولًا ثَانِيًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً [النَّحْل: 112]. وَالْمَعْنَى: أَنَّ حَالَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَحَالِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ الْمُمَثَّلِ بِهِمْ."([6])

ويكشف العلامة البقاعي عن أوجه التناسب بين هذه الآية وما سبقها فيقول: " دلَّ سبحانه على ما له من القدرة الكاملة بالأفعال الهائلة من كل من الإماتة والإحياء الحسيين والمعنويين إبداء وإعادة ، وكان ضرب الأمثال بالمشاهدات ألصق شيء بالبال ، وأقطع للمراء والجدال ، وأكشف لما يراد من الأحوال ، قال عاطفاً على {فبشره} مبيناً للأصل الثالث الذي هو الأول بالأصالة المقصود بالذات ، وهو التوحيد ، ضامّاً إليه الأصلين الاخرين ، ليكون المثل جامعاً ، والبرهان به واضحاً ساطعاً: {واضرب لهم} أي لأجلهم بشارة بما يرجى لهم عند إقبالهم ، ونذارة لما يخشى عليهم عند إعراضهم وإدبارهم {مثلاً} أي مشاهداً في إصرارهم على مخالفة الرسول وصبره عليهم ولطفه بهم ، لأنا ختمنا على قلوبهم على الكفران مع قربهم منك في النسب والدار ، وفوز غيرهم لأنا نورنا قلوبهم مع البعد في النسب والدار بالإيمان وثمراته الحسان ، لأنهم يخشون الرحمن بالغيب ، ولا يثبتون على الغباوة والريب."(7)

أما عن (أصحاب القرية) وهم المعنيون في المثل ، فقد أفرد كثير من المفسرين مساحات واسعة للحديث عن هذه القرية وعن أصحابها.(8) وحَرِيٌ بنا هنا في هذا المقام أن ننقل ما أوجزه العلامة الثعالبي إذ يقول: "وذَكَرَ المفسرون في قَصَص الآيةِ أشياء يَطُولُ ذِكْرُها

والصِّحَّةُ فيها غَيْر مُتَيَقَّنَةٍ ، فَاخْتَصَرْتُه واللاَّزِمُ مِنَ الآيةِ أنَّ اللَّه تعالى بَعَثَ إلَيْهَا رَسُولَيْنِ ، فَدَعَيَا أهلَ القَرْيَةِ إلى عبادةِ اللَّهِ وتوحيدِه ، فَكَذَّبُوهُما فَشَدَّدَ اللَّهُ أمرهما بثالثٍ ، وقامت الحجةُ على أهلِ القريةِ ، وآمن منهم الرجلُ الذي جاءَ يسعى ، وقتلوه في آخر أمره وكفروا ، وأصابتْهم صيحةٌ مِن السَّمَاء."([9]) ويرى صاحب الظلال تعليقا على ذلك أن القرآن لم يذكر: "من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات ، ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات. وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئًا في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها."([10])

تبدأ قصة المثل عندما جاء المرسلون ، وهنا عبرت الآيات الكريمة عن ذلك بقوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ " فمن هم أصحاب القرية؟ ولمَ أُوقع الفعل (جاء) على الضمير (ها) و ليس ضمير الجمع (هُمْ) ؟ وما وجه الدلالة في تعريف فاعل المجيء (المرسلون)؟

جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم أصحاب القرية: أهل أنطاكية.([11]) ولكنْ إذا كان أهل القرية جميعا هم المعنيون هنا فلمَ أوقع الفعل (جاء) على الضمير (ها) وكان يتوقع مكانه ضميرٌ (هُمْ) عائدٌ على أصحاب القرية؟ أرى أن الضمير المتصل بالفعل هنا عائد إلى القرية بجميع أهلها ، وأن المقصودين به هنا هم أكابرها أو النافذون فيها ، أو الصفوة من رجالها وذوي العلم والجدال...وهم الذين دخلوا طرفًا في الحوار مع المرسلين ـ كما سيتبين لاحقا من الآيات ـ فلا يعقل أن كل أهل القرية يدخلون في حوار مع المرسلين حول الرسالة و من يبلِّغها من المرسلين.

ولعل ما قال به الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي من أنَّ مجيء" جاءها دون جاءهم إشارة إلى أنهم أتوهم في مقرهم" (12) يقوّي ها الرأي.

ويستنبط صاحب نظم الدرر أوجه التناسب بين مفردات الآية قائلا: "لما ذكر المثل ، أبدل منه قوله: {أصحاب القرية} التي هي محل الحكمة واجتماع الكلمة وانتشار العلم ومعدن الرحمة. ولما كان الممثل به في الحقيقة إنما هو إخبارها بأحوال أهلها لأنها وجه الشبه ، وكانت أخبارها كثيرة في أزمنة مديدة ، وعين المراد بقوله: {إذ} وهي بدل اشتمال من القرية مسلوخة من الظرفية. ولما كان الآتي ناحية من بلد وإن عظم يعد في العرف آتياً لذلك البلد ، أعاد الضمير على موضع الرسالة تحقيقاً له وإبلاغاً في التعريف بمقدار بعد الأقصى فقال: {جاءها} أي القرية لإنذار أهلها" (13)

أما عن (المرسلون) فيرى أنهم مرسلون عن الله لكونهم عن رسوله عيسى عليه السلام أرسلهم بأمره لإثبات ما يرضيه سبحانه ونفي ما يكرهه الذين هم من جملة من قيل في فاطر إنهم جاؤوا بالبينات وبالزبر ، والتعريف إما لكونهم يعرفون القرية ويعرفون أمرها ، وإما لأنه شهير جداً فهم بحيث لو سألوا أحداً من أهل الكتاب الذين يعتنون بها أخبرهم به ، لأنه قد عهد منهم الرجوع إليهم بالسؤال ليبينوا لهم - كما زعموا - مواضع الإشكال.(14)

هكذا وظفت المفردة في مقدمة آي المثل لإعطاء المخاطب إلمامة سريعة عن قصة القرية التي ضُربت مثلا ، والعنصرين الرئيسيين في هذه القصة وهما: المرسلون ، والمرسلون إليهم ، وذلك في أسلوب موجز و معبر يجذب المتلقي للتعرف على قصة هذا المثل.

المبحث الثاني: دور المفردة في الخطاب الدعوى الأوّلي ، ومردوده.

بعد أن أعطت الآية السابقة ومضة عن موضوع المثل ، ورأينا كيف تضافرت المفردة الشريفة في بيان بعض محددات القرية. شرعت مفردات آخر في تفصيل المقدمة التي حملتها هذه الآية ، إذ بدأ الحديث عن طرفين رئيسين في الخطاب الدعوي فضلا عن الخطاب الدعوي نفسه ، ثم موقف المدعوين من ذلك ، جاء ذلك في قوله تعالي: " إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ "

بدأت الآية الكريمة بالعنصر اللغوي (إِذْ) وذلك في نظر الرازي "يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا بدلا من إذ جاءها كأنه قال الضرب لَهُمْ مَثَلًا ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَى أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ اثْنَيْنِ. وَثَانِيهِمَا: وَهُوَ الْأَصَحُّ وَ الْأَوْضَحُ أَنْ يَكُونَ إِذْ ظَرْفًا وَالْفِعْلُ الْوَاقِعُ فِيهِ جَاءَهَا أَيْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ حِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْهِمْ أَيْ لَمْ يَكُنْ مَجِيئُهُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَإِنَّمَا جَاءُوهُمْ حَيْثُ أُمِرُوا ."(15)

أما الفعل (أَرْسَلْنَا) فقد أُسند للذات العلية على سبيل التعظيم والتفخيم ، مع أن هؤلاء الرسل كانوا مرسلين من جهة عيسى عليه السلام ، يقول الشوكاني: "أَضَافَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِرْسَالَ إِلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ لِأَنَّ عِيسَى أَرْسَلَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَرْسَلَهُمْ بَعْدَ رَفْعِ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ ، فَكَذَّبُوهُمَا فِي الرِّسَالَةِ ، وَقِيلَ ضَرَبُوهُمَا وَسَجَنُوهُمَا. قِيلَ: وَاسْمُ الِاثْنَيْنِ يُوحَنَّا وَشَمْعُونُ. وَقِيلَ: أَسْمَاءُ الثَّلَاثَةِ صَادِقٌ وَمَصْدُوقٌ وَشَلُومُ قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ. وَقِيلَ: سَمْعَانُ وَيَحْيَى وَبُولُسُ "(16)

ومن قبل الشوكاني أكد الرازي: "أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا مَبْعُوثِينَ مِنْ جِهَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْسَلَهُمْ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ فَقَالَ تَعَالَى: إِرْسَالُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ إِرْسَالُنَا وَرَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ بِإِذْنِ

اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ."(17)ويرى ذلك صاحب البحر المحيط: "الظَّاهِرُ مِنْ أَرْسَلْنَا أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ أَرْسَلَهُمُ الله ، ويدل عليه قوله الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا. وَهَذِهِ الْمُحَاوَرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَعْبٍ."(18)

وتقدم الجار والمجرور (إِلَيْهِمُ) على المفعول به (اثْنَيْنِ) لِلِاهْتِمَامِ بِأَمْرِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمُ الْمَقْصُودِ إِيمَانهم بِعِيسَى.(19) أما عن الحكمة من إرسال (اثْنَيْنِ) فيقول الرازي في تفسيره : " فِي بَعْثَةِ الِاثْنَيْنِ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ وَهِيَ أَنَّهُمَا كَانَاه مَبْعُوثَيْنِ مِنْ جِهَةِ عِيسَى بِإِذْنِ اللَّهِ فَكَانَ عَلَيْهِمَا إِنْهَاءُ الْأَمْرِ إِلَى عِيسَى وَالْإِتْيَانُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ يَشْهَدُ عِنْدَهُ ، وَأَمَّا عِيسَى فَهُوَ بَشَرٌ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِإِرْسَالِ اثْنَيْنِ لِيَكُونَ قَوْلُهُمَا عَلَى قَوْمِهِمَا عِنْدَ عِيسَى حُجَّةً تَامَّةً."(20)

وسكتت الآيات عن فحوي الرسالة التي حملها الرسولان ، ذلك أن السياق اللغوي الذي انتظمت فيه الجملة الفعلية ، والجملة الاسمية المؤكدة (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) يفهم منه أن الدعوة إلى التوحيد كانت هي محور رسالة هذين الرسولين ، ناهيك عن مقتضي ذلك من أنهم رسل من الله ، فكلا الأمرين يعاضد الآخر ، فمادام الرسل قد كُذبوا ، فهناك إنكار أن يكونوا رسل من الله ، والعكس صحيح. و هذا ما ذهب إليه أبو حيان في تفسيره حيث قال: "فَكَذَّبُوهُما ، أَيْ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَأَخْبَرَا بِأَنَّهُمَا رَسُولَا اللَّهِ ، فَكَذَّبُوهُما."(21)

وعبرت الآيات عن سرعة الاستجابة السلبية من القوم لدعوة الرسولين وعما ترتَّب على ذلك من تعزيزهما بثالث باستخدام الفاء العاطفة. و كانت الاستجابة السلبية (التكذيب) من أهل القرية أجمعين تجاه الرسولين ، وهو ما عبرَّ عنه ضمير الجمع (واو الجماعة) الذي أُسند إليه الفعل الماضي (كَذَّب) ، والضمير (هُمَا) الذي وقع عليه فعل التكذيب.

أَتْبَع تكذيب القوم للرسولين أن أرسل الله رسولا ثالثا ، وهو ما عبرت عنه الجملة الفعلية المصدرة بفاء العطف كما سبق أن بينَّا. والمعني هنا كما قال الطبري: فشددناهما بثالث ، وقويناهما به ، وقد وثقَّ ما ذهب إليه بقوله: " حدثني محمد بن عمرو ، قال: حدثنا أبو عاصم ، قال: حدثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال: حدثنا الحسن ، قال: حدثنا ورقاء ، جميعا عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) قال: شددنا. و حدثنا ابن حميد ، قال: حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن أبي بَزَّة ، عن مجاهد في قوله (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) قال: زدنا. حدثنا يونس ، قال: أخبرنا ابن وهب ، قال: قال ابن زيد ، في قوله (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ) قال: جعلناهم ثلاثة ، قال: ذلك التعزز ، قال: والتعزز: القوة. ثم قال: وبالتشديد في قوله (فَعَزَّزْنَا) قرأت القراء سوى عاصم ، فإنه قرأه بالتخفيف ، والقراءة عندنا

بالتشديد ، لإجماع الحجة من القراء عليه ، وأن معناه ، إذا شُدد: فقوينا ، وإذا خُفف: فغلبنا ، وليس لغلبنا في هذا الموضع كثير معنى.(22) وقد نقل هذه المعاني كثير من المفسرين بعد الطبري.(23)

ولئن كان كثير من المفسرين لا يرى وجهًا قويا للمعنى المستفاد من التخفيف في الفعل (عَزَّزْنَا)، فإن أبي حيان يري غير ذلك إذ يقول: "فَعَزَّزْنَا مُشَدَّدًا ، أَيْ قَوَّيْنَاهُمَا بِثَالِثٍ. مُخَفَّفًا ، فَغَلَبْنَاهُمْ: أَيْ بِحُجَّةٍ ثَالِثٍ وَمَا يَلْطُفُ بِهِ مِنَ التَّوَصُّلِ إِلَى الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ حَتَّى مِنَ الْمَلِكِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِي قِصَّتِهِمْ."(24)

وعن علة ترك المفعول به يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟ قلت: لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل ، وإذا كان الكلام منصبًا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه مرفوض مطرح. و نظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق ، الغرض المسوق إليه: قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه."(25)

وقد نقل نفس التعليل النسفي في تفسيره مدارك التنزيل.(26) ولا يختلف البيضاوي مع سابقيه عندما وقف على هذه المسألة ، غير أنه ينبّه إلى ملمح سياقيّ إضافة إلى الملمح البلاغي المسبوق فيقول يرحمه الله: "وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به."(27)

ويعلل الرازي للمسألة أيضا تعليلا يختلف عما ذُكر ، وينطلق من التعليل ليجري مقارنتين الأولي بين الرسل هنا ورسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والثانية بذكر المفعول به في قصة موسي وحذفه هنا ، وينطلق في هذا المقارنة كما سنرى من منطلق مراعاة السياق الخارجي أو المقام في كل تركيب ، وهاك نصه: " وَتْرِكَ الْمَفْعُولُ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ فَعَزَّزْنَاهُمَا لِمَعْنًى لَطِيفٍ وَهُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ بَعْثِهِمَا نُصْرَةُ الْحَقِّ لَا نُصْرَتُهُمَا وَالْكُلُّ مُقَوُّونَ لِلدِّينِ الْمَتِينِ بِالْبُرْهَانِ الْمُبِينِ ، وَفِيهِ مَسَائِلُ: الْمَسْأَلَةُ الأولى: النبي صلى الله عليه وآله وَسَلَّمَ بَعَثَ رُسُلَهُ إِلَى الْأَطْرَافِ وَاكْتَفَى بِوَاحِدٍ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ اثْنَيْنِ ، نَقُولُ النَّبِيُّ بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فَاكْتَفَى بِوَاحِدٍ فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ فِي الْفُرُوعِ مَقْبُولٌ ، وَأَمَّا هُمَا فَبُعِثَا بِالْأُصُولِ وَجَعَلَ لَهُمَا مُعْجِزَةً تُفِيدُ الْيَقِينَ وَإِلَّا لَمَا كَفَى إِرْسَالُ اثْنَيْنِ أَيْضًا وَلَا ثَلَاثَةٍ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ [القصص: 35] فذكر المفعول هناك ولم يذكره هاهنا مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَاكَ أَيْضًا نُصْرَةُ الْحَقِّ ، نَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ هَارُونَ ، وَهَارُونُ بُعِثَ مَعَهُ بِطَلَبِهِ حَيْثُ قَالَ: فَأَرْسِلْهُ مَعِي [الْقَصَصِ:

34] فَكَانَ هَارُونُ مَبْعُوثًا لِيُصَدِّقَ مُوسَى فِيمَا يَقُولُ وَيَقُومُ بِمَا يَأْمُرُهُ ، وَأَمَّا هُمَا فَكُلُّ وَاحِدٍ مُسْتَقِلٌّ نَاطِقٌ بِالْحَقِّ فَكَانَ هُنَاكَ الْمَقْصُودُ تَقْوِيَةَ مُوسَى وَإِرْسَالَ مَنْ يُؤْنِسُ معه وهو هارون ، وأما هاهنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق."(28)

انطلق الرسل الثلاثة إلى القوم مرة أخرى ، فأعلنوا دعوتهم وأكدوا حقيقتهم وهي أنهم رسل الله فقالوا : " إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ " ، والتركيب القرآني الذي حمل مقولة هؤلاء الرسل جاء كما نرى جملة اسمية مؤكد بأداة التوكيد (إنَّ) ، وكان الرسولان قد قدَّما من دلائل كونهم رسل من الله ما لا يسع المرء إنكاره ، ومع ذلك كُذِّبا فجاء الرسول الثالث ، وأعلنا الجميع للقوم في تلكم القرية عن حقيقتهم مرة أخري.

وقد لعب التوكيد في التركيب دوره في دفع أي شك أو توهم قد ينال من حقيقة هؤلاء الرسل وصدق دعوتهم ، فقد تقدم الجمل الاسمية الضمير(نا) ليشغل اسم إن وهو في الأصل مبتدأ جِيء به ليشكل محور الجملة ، وكل ما يدور فيها من معانٍ أخرى إنما هي لتوضيحه والإخبار عنه.(29) وتسمى الجملة هنا بالجملة الإسنادية ، وهي التي تُوصف بأنها تقرر ثبوت شيء لشيء أو نفيه عنه ، سواء كان هذا الثبوت أو النفي على وجه الإخبار أو الإنشاء.(30)

قصد الرسل إلى تقرير وإثبات حقيقتهم للقوم بالتركيب الاسمي ، وقُوِّيَ هذا التقرير والإثبات ثلاثة عناصر:

الأول: توظيف حرف التوكيد (إنَّ) في صدر الجملة.

الثاني: توسط ركني الجملة الجار والمجرور (إِلَيْكُمْ) لإعلام المخاطبين بخصوصية مهمتهم ، فأهل القرية جميعا هم المستهدفون لا غيرهم.

الثالث: الصيغة الصرفية للخبر (مُرْسَلُونَ) ، إذ جاءت الكلمة على صيغة اسم المفعول التي تدل على الحدوث والثبوت الذي لا يقيده زمن.(31)

المبحث الثالـث: دور المفردة في صياغة موقف المتلقي ، وبناء حججه.

جاءت استجابة أهل القرية أو النافذين فيها لما أورده الرسل في ثلاث تراكيب حملت كل منها مجموعة من القضايا: " قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)"

التركيب الأول: اسمي مؤكد " مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا"

التركيب الثاني: فعلي منفي " وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ"

التركيب الثالث: اسمي مؤكد "إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ "

جاء رد فعل أهل القرية من حيث انتهي كلام الرسل ، فبعد أن أكد المرسلون على كونهم رسل من الله ، دفع أصحاب القرية ببشرية هؤلاء الثلاثة ، ونفوا عنهم كونهم رسل من الله ، وعبَّر عن ذلك التركيب الأول " مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا".

وهذا التركيب اسمي مؤكد وحصل التوكيد هنا بالقصر أو التخصيص بتقدم (ما) النافية للحال ،(32) حيت قامت بنفي مضمون الجملة ، أو نفي علاقة الإسناد الرابطة بين ركنيه ، ثم ركنا الإسناد أو أحد ركنيه (إذا كان الآخر محذوفًا) ؛ فيتشكل المقصور ، ثم ترد أداة نقض النفي المتقدم وهي (إلَا) المحققةُ درجة توكيد عالية في سلم أبنية التوكيد ووسائله ، يطلق عليها التخصيص أو القصر والحصر ، ثم العنصر الذي وقع عليه الحصر وهو المقصور عليه ، ويمثل هنا محور التركيز في هذه الجمل ، إذ يوجه المتكلم ذهن المخاطب إلى المعنى أو المعاني التي يتضمنها هذا الجزء." (33)

وقد حدد عبد القاهر الجرجاني وظيفة هذه البنية بالإشارة إلى أمر يقع خارجها ، وهو بيان حال المخاطب المعنّي بالكلام ، قائلا: "وأما الخبرُ بالنّفْي والإثباتِ نحو "ما هذا إلاَّ كذا وإنْ هو إلاَّ كذا" ، فيكونُ للأمرِ يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه. فإذا قلتَ: (ما هو إلاَّ مُصيبٌ ، أو: ما هو إلا مُخْطِئ): قُلْتَه لِمَنْ يَدْفَع أنْ يكنَ الأمرُ على ما قلتَه. وإذا رأيتَ شخصاً مِنْ بعيدٍ فقلتَ: (ما هو إلا زيدٌ): لم تَقُلْه إلاَّ وصاحِبُك يَتوهَّم أنه ليس زيداً وأنه إنسانٌ آخر ، ويجدُّ في الإنكارِ أن يكونَ زيداً."(34)

هكذا كانت ردة فعل المتلقين لخطاب هؤلاء الرسل ، التأكيد على بشريتهم والإنكار التام لحقيقة كونهم مرسلين ، وزاد من قوة التوكيد توكيدًا مجيء النعت توكيدًا مجيء النعت (مِثْلُنَا) للخبر (بَشَرٌ)، فالمخاطبون في نظرهم ليسوا برسل بل هم بشر ، عاديون ، وهذا ما يوحيه التنكير في الكلمة (بَشَرٌ) من حيث العموم ؛ ومن ثَمَّ فلا ينمازون من غيرهم بشيء إنما هم بشر مثل أصحاب القرية.

وبتحليل المقام الذي سيقت في العناصر اللغوية السابقة ، نجد أن القوم كذبت الرسولين ، فتم التعزيز بثالث تقوية للموقف الدعوي ، وقد أبان المرسلون بتأكيد حقيقتهم وهي بالأحرى تكشف عن مهمتهم ، فجاء الرد الأول من القوم بتأكيد بشرية الثلاثة ، وكأن البشرية في نظر القوم لا تخلع صفة الرسل على المرسلين الثلاثة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: "أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَلَا يَجُوزُ رُجْحَانُكُمْ عَلَيْنَا ذَكَرُوا الشُّبْهَةَ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ إِلَى الْمُرْسَلِينَ."(35)

ويرى الماوردي أنَّ: "هذا القول منهم إنكار لرسالتهم ، ويحتمل وجهين: أحدهما: أنَّكم مثلنا غير رسل وإن جاز أن يكون البشر رسلاً. الثاني: إنَّ مثلكم من البشر لا يجوز أن يكونوا رسلاً."(36)

و يحلل صاحب الظلال ـ يرحمه الله ـ موقف القوم من الرسل عندما دفعوا بشبهة بشريتهم ، تحليلا يرتكز في أحد جوانبه إلى (المثيولوجيا) أو علم الأساطير ، ويرد على هذه الشبهة فيقول: " وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ، فقد كانوا يتوقعون دائما أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير.. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام و الأساطير ؟! كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت ؟! وهذه هي سذاجة التصور و التفكير. فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة ، وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية ، وإن هنالك لسرا هائلا ضخما ، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة ، حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللَّدني الذي يتلقى به وحي السماء ، حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب. و هو أعجب من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون! والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية ، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي ، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به وهم بشر ، فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجا من الحياة يملكون هم أن يقلدوه ؛ ومن ثم كانت حياة الرسول- صلّى الله عليه وسلّم- معروضة لأنظار أمته. وسجل القرآن- كتاب الله الثابت- المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون. و من هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية ، حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان ، ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان."(37)

أما التركيب الثاني الذي جاء في مقولة أصحاب القرية ردا على دعوة المرسلين ، فقد جاء تركيبا فعليًا منفيًا ، وهو قوله تعالى: " وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ " ، وهو كما نري يثير ـ في ظنهم ـ شبهة تتعلق بالرسالة ، بعد أن أثار التركيب السابق شبهة تتعلق بالمرسلين. وهذا

تطور تصاعدي في خطاب النفي والإنكار الموجه لأولئك المرسلين ، وقد صُدِّر هذا التركيب بأداة النفي (مَا) وهي لنفي الحال كما جاء في التركيب الأول ، غير أنها في التركيب الثاني وسعت النطاق الزمني لدلالة النفي ؛ فاكسبت التركيب هنا النفي في الماضي إلى جانب الحال ، وقد تأتى لها هذا لدخولها على الفعل الماضي (أَنْزَلَ).

وقد وصل الإنكار هنا حدًا يفهم منه مدى الكفر والجحود الذي سيطر على أفهام هؤلاء ، وقد لعب العنصران اللغويان(مِن) ، (شَيْءٍ) ، دورًا واضحًا في تأكيد هذا الإنكار. فقد جاءت (مِن) "لتفيد التنصيص على العموم. وتسمى الزائدة ، لاستغراق الجنس ، وهي الداخلة على نكرة لا تختص بالنفي ، نحو: ما في الدار من رجل. فهذه تفيد التنصيص على العموم ، لأن ما في الدار رجل محتمل لنفي الجنس ، على سبيل العموم ، ولنفي واحد من هذا الجنس ، دون ما فوق الواحد. ولذلك يجوز أن يقال: ما قام رجل بل رجلان. فلما زيدت من صار نصاً في العموم ، ولم يبق فيه احتمال. وقيل: إنها في نحو ما جاءني من رجل ، زائدة ، على حد زيادتها في: ما جاءني من أحد ، لأنك إذا قلت: ما جاءني من رجل ، فإنما أدخلت من على النكرة ، عند إرادة الاستغراق ، فصار رجل لما أردت به الاستغراق مثل أحد."(38)

أما لفظة (شِيْءٍ) ، فمجيئها نكرة جاء متناسقًا مع حرف الجر السابق عليها ؛ لتؤكد على النفي العام لكل ما يمكن تصوره من وحي ، أو رسالة. لذا قال ابن عطية: "هذه الأمة أنكرت النبوءة بقولها: وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْء." (39) وقال الشوكاني: " ثُمَّ صَرَّحُوا بِجُحُودِ إِنْزَالِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ فَقَالُوا: وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا تَدَّعُونَهُ أَنْتُمْ وَيَدَّعِيهِ غَيْرُكُمْ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ." (40)

غير أن الماوردي بالغ عندما وقَّف عند هذه الآية حينما قال: "{وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ} يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك منهم إنكاراً للرحمن أن يكون إلهاً مرسلاً. الثاني: أن يكون ذلك إنكاراً أن يكونوا للرحمن رسلاً."(41) فالوجه الثاني له ما يؤيده في الآية ، أما الوجه الأول فلا يحتمله نص الآية الكريمة ، فذكرهم للرحمن جل شأن اعتراف منهم به سبحانه. وقد سبق إلى ذلك الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي بقوله: " وما أنزل الرحمن الخ يقتضي إقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة"(42) ثم يقول: "والتعبير بالرحمن لحلمه عليهم ورحمته بعدم تعجيل العذاب حين الإنكار."(43)

ويربط الرازي بين هذا التركيب ، والتركيب السابق عليه فيقول: "وَقَوْلُهُ: وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مُتَمِّمًا لِمَا ذَكَرُوهُ فَيَكُونُ الْكُلُّ شُبْهَةً وَاحِدَةً ، وَوَجْهُهُ هُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا أَنْتُمْ بَشَرٌ فَمَا نَزَلْتُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ أَحَدًا ،

فَكَيْفَ صِرْتُمْ رُسُلًا لِلَّهِ ؟ وَثَانِيهِمَا: أَنْ يَكُونَ هَذَا شُبْهَةً أُخْرَى مُسْتَقِلَّةً وَوَجْهُهُ هُوَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَلَا يَجُوزُ رُجْحَانُكُمْ عَلَيْنَا ذَكَرُوا الشُّبْهَةَ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ إِلَى الْمُرْسَلِينَ ، ثُمَّ قَالُوا شُبْهَةٌ أُخْرَى مِنْ جِهَةِ الْمُرْسِلِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِمُنَزِّلٍ شَيْئًا فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فَإِنَّ تَصَرُّفَهُ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَلِلْعُلْوِيَّاتِ التَّصَرُّفُ فِي السُّفْلِيَّاتِ عَلَى مَذْهَبِهِمْ ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُنَزِّلْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيَا فَكَيْفَ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ، وَقَوْلُهُ: الرَّحْمنُ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَانَ رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْإِرْسَالُ رَحْمَةٌ ، فَكَيْفَ لَا يُنْزِلُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ رَحْمَنٌ ، فَقَالَ إِنَّهُمْ قَالُوا: مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ شَيْئًا ، وَكَيْفَ لَا يُنْزِلُ الرَّحْمَنُ مع كونه رحمن شَيْئًا ، هُوَ الرَّحْمَةُ الْكَامِلَةُ."(44)

وختم رد القوم بالتركيب الثالث: وهو قولهم: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)، والتركيب كما نري اسمي مؤكد عن طريق الحصر أو التخصيص بالأداتين (إِنْ) النافية التي تصدرت الجملة وهي غير عاملة فيما بعدها(45)، و(إِلَّا) التي سبقت جملة الخبر ، و يعلل الجرجاني لمجيء هذا التركيب على النحو الذي رأيناه فيقول: " إنما جاء ، والله أعلم ، "بإن" و "إلاَّ" دونَ "إنَّما .... حيثُ يُرادُ إثباتُ أمرٍ يدفَعُه المخاطَبُ ويدَّعي خلافَه."(46)

وفي مجيء الخبر جملة فعلية بفعل مضارع ، إلصاق دائم ومتجدد لتهمة الكذب بالرسل واختصاصهم بها ، وهي تهمة تنفِّر الناس ممن يتصفون بها وتجعلهم ينصرفون عنهم. وبضدها وهو الصدق انماز رسل الله وأنبياؤه عليهم السلام من غيرهم مذ ولدوا وترعرعوا وعرفوا بها بين الناس.

ويرى الماوردي ـ كما عودنا ـ أن في: "{إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تُكْذِبُونَ} يحتمل وجهين: أحدهما: تكذبون في أن لنا إلهاً. الثاني: تكذبون في أن تكونوا رسلاً."(47) لكن الاحتمال الأول ضعيف أو غير مقبول كما سبق أن بيَّنا في التركيب الثاني.

ويلاحظ أن التركيب الثالث جاء نتيجة لنفي صفة الرسل عن المرسلين ، و لنفي أن تكون هناك رسالة من الله يحملها هؤلاء لهم ، إذن فهولاء الرسل يكذبون. وبضم التراكيب الثلاثة التي شكلت موقفًا عقديا لأصحاب القرية نرى كيف تصاعدت درجات الإنكار والإعراض للرسل والرسالة كما رأينا حتى وصلت إلى الموقف العام من الرسل الذي حمله التركيب الثالث الذي يؤيد ويؤكد ـ في نظرهم ـ الزعمين: الأول والثاني.

المبحث الرابــع: أثر المفردة في صياغة ودرء حجج المنكرين.

جاء رد الرسل على المقولات الثلاث لأصحاب القرية ، بما يدحض ما تذرع به هؤلاء من حجج في رفضهم لدعوة هؤلاء الرسل في الآيتين :" قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16)

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17)" ، صَدَّر الرسل ردهم على اِدِّعاءات القوم باسم من أسماء الله تعالى (رَبُّنَا) وقد ارتكز الرسل هنا على ما رأوه من فهم مشترك في بعض المسلمات العقدية التي بدت في ردود القوم على دعوتهم إياهم ، وذلك في قولهم: (وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ) ، إذن فالقوم مؤمنون بالله ، لكنهم منكرون للرسل وما جاءوا به. وقد استثمر الرسل هذا الأمر في محاولة استمالة القوم ، وإقامة الحجة عليهم ، وتأكيد ربانية دعوتهم وصدقهم فيها ، وهذه من الآليات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في مناهج الدعاة ومنابر الحوار مع الآخر.(48)

وقد حُشدت في هذا الرد مجموعة من العناصر اللغوية التي ترمي إلى توكيد هذا الرد بما لا يسع المتلقي إلا الوقوف عنه و تأمله ومن ثَمَّ تصديقه. وأول ما نلاحظه في قول الرسل خطابا للقوم (رَبُّنَا) ، بما يشعر بنوع من الالتقاء رغم الشُّقة التي أحدثتها ردود هؤلاء المنكرين على الرسل ورميهم بالكذب ، فرَبُّ الجميع ـ الرسل وأصحاب القرية ـ واحد ، وفوق ما في هذا الالتقاء ما يُشعر الطرف الآخر أنَّ ما يرتكن إليه الرسل ويتقوَّون به هو الذي أرسلهم ، وهو القوي العزيز الذي لا يُغلب ؛ مما يلقي في نفوسهم نوعا من الرهبة والخوف إذ أصروا على عنادهم ولم يستكينوا لأمر الرب جل وعلا ، وفي إلحاق ضمير المخاطبين (نَا) بـ(رَبِّ) ما يُشعر بفخر و زهو المتكلمين بانتسابهم ووقوعهم في كنفه وتحت أعينه ورعايته سبحانه.

جاء ذلك في موقع المبتدأ ، تلاه مباشرة الخبر (يَعْلَمُ) ، وهو جملة فعلية ذات فعل مضارع ، وللفعل المضارع دلالته التي لا تخفى من تجدد واستمرار دون انقطاع. وقد شكل الركنان الجملة اسمية التي تحمل معاني الثبات والدوام. و قول الرسل (رَبُّنَا يَعْلَمُ) " يجري مجرى القسم ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ يَعْلَمُ اللَّهُ فِيمَا لَا يَكُونُ فَقَدْ نَسَبَ اللَّهَ إِلَى الْجَهْلِ وَهُوَ سَبَبُ الْعِقَابِ ، كَمَا أَنَّ الْحِنْثَ سَبَبُهُ ، وَفِي قَوْلِهِ: رَبُّنا يَعْلَمُ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ عَلَيْهِمْ حَيْثُ قَالُوا أَنْتُمْ بَشَرٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمُرْسَلُونَ ، يَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: / اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ [الْأَنْعَامِ: 124] يَعْنِي هُوَ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ وَقَادِرٌ ، فَاخْتَارَنَا بعلمه لرسالته."(49)

أما عن مفعول الفعل (يَعْلَمُ) ، فهو قوله تعالي على لسان الرسل: (إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ). و قد تعاضدت مجموعة من العناصر اللغوية في إبرازه ، وهو يتشابه إلى حد كبير مع قول رسل الله السابق (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ) سوى في شيئين: الأول: مجيء القسم قبله ، والثاني: ودخول لام التوكيد قبل الخبر فيه. والعناصر اللغوية التي حشدت لنا للقوية والتوكيد تمثلت في:

1ـ الجملة التي جرت مجرى القسم (رَبُّنَا يَعْلَمُ).

2ـ حرف التوكيد (إنَّ).

3 ـ تقدم الجار والمجرور على الخبر(إِلَيْكُمْ).

4 ـ دخول اللام المزحلقة على الخبر(لَمُرْسَلُونَ).

وفي تحليل رائع للمقام الذي سيق فيه هذا الحدث اللغوي تزخر أمهات التفاسير بكثير من النكات التي تفتقت عنها أذهان أولئك العلماء في القديم والحديث ، فضلا عن المؤلفات في علمي المعاني والحجاج ، فها هو العلامة الفخر الرازي يشير إلى أحوال الفاعلين (المتكلمين) في الحدث اللغوي معللا لقول الرسل (إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ): " إِشَارَةٌ إلى أنهم بِمُجَرَّدِ التَّكْذِيبِ لَمْ يَسْأَمُوا وَلَمْ يَتْرُكُوا ، بَلْ أَعَادُوا ذَلِكَ لَهُمْ وَكَرَّرُوا الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ وَأَكَّدُوهُ باليمين وقالوا ربنا يعلم إنا إليكم المرسلون وَأَكَّدُوهُ بِاللَّامِ." (50)

وفي ذات القضية يلتفت النيسابوري التفاتة رائعة تنمُّ عن حسه اللغوي الذي سبق به لغويي تحليل الخطاب المحدثين ، فيتحدث عن مراعاة حال السامع قائلا: " قال أهل البيان: يجب زيادة المؤكدات في الجملة الخبرية بحسب تزايد الإنكار من السامع فلهذا قال الرسل أوّلا: إنا إليكم مرسلون مقتصرين على «إن» . وثانيا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ مجموعا بين «أن» واللام وما يجري مجرى القسم. ولا يخفى أن اليمين بعد إظهار البينة وإفحام الخصم مؤكد قوي كما مر في أول السورة."(51)

أما عن الحجة التي تقام على أصحاب القرية في هذا الرد من الرسل فقد توقف عندها الماوردي ، وقال: " قيل يحتمل قولهم ذلك وجهين: أحدهما: معناه ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون بما يظهره لنا من المعجزات ، وقد قيل إنهم أحيوا ميتاً وأبرؤوا زمِناً. الثاني: أن تمكين ربنا لنا إنما هو لعلمه بصدقنا."(52)

جاء هذا الرد الذي وظفت فيه عناصر كثيرة للتقوية والتوكيد ، وكان ذلك كما رأينا لإنكارٍ من القوم تحصنوا خلفه بثلاث من الشبهات سجلها السورة الكريمة ـ كما رأينا ـ في قوله تعالى:" قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ " ولم يكتفِ الرسل بما أكدوه عن حقيقتهم ؛ مقابل ما دفع به أصحاب القرية من شبهات ، بل أكدوا على مهمتهم التي أرسلوا من أجلها ، وكان ذلك عطفا على إعلانهم السابق ، فقالوا: " وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ".

وقد عمد الرسل هنا أيضًا على حشد مجموعة من عناصر التوكيد سبق أن وظفها الطرف الآخر (أصحاب القرية) في حواره مع الرسل ، فقد قالوا (مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ). غير أن التركيب الذي صاغته الرسل توفره به من عناصر التقوية لم يتوفر في مقولة أصحاب القرية.

فقد تقدم الخبر على المبتدأ هنا جوازا ، وجاء الخبر شبه جملة (حرف الجر (على) + ضمير الفاعلين (نا) ، ففي التقديم إفادة التخصيص أو الحصر. ثم جاء المبتدأ المتأخر معرفًا وموصوفًا بـ(الْمُبِينُ) إذ الوضوح الذي لا لبس فيه ولا غموض سمة التزم بها الرسل في بلاغهم للقوم ، وفي ذلك تأكيدٌ على أداء مهمتهم ، وإخلاصهم لها. وفي تخير كلمة (الْبَلَاغُ) ما يشعر بعِظم وأهمية هذه الدعوة ، كما يشير التركيب الوصفي (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) إلى جسامة المهمة التى أُنيطت بهؤلاء الرسل.

يقول الرازي عن هذه التركيب: (وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) تَسْلِيَةٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، أَيْ نَحْنُ خَرَجْنَا عَنْ عُهْدَةِ مَا عَلَيْنَا ، وَحَثًّا لَهُمْ عَلَى النَّظَرِ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ كَانَ ذَلِكَ يُوجِبُ تَفَكُّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ حَيْثُ لَمْ يَطْلُبُوا مِنْهُمْ أَجْرًا ولا قصدوا رئاسة ، وَإِنَّمَا كَانَ شُغْلُهُمُ التَّبْلِيغَ وَالذِّكْرَ ، وَذَلِكَ مِمَّا يحمل العاقل على النظر. والْمُبِينُ يَحْتَمِلُ أُمُورًا: أَحَدُهَا: الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لِلْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ ، أَيِ الْفَارِقُ بِالْمُعْجِزَةِ وَالْبُرْهَانِ وَثَانِيهَا: الْبَلَاغُ الْمُظْهِرُ لِمَا أَرْسَلْنَا لِلْكُلِّ ، أَيْ لَا يَكْفِي أَنْ نُبَلِّغَ الرِّسَالَةَ إِلَى شَخْصٍ أَوْ شَخْصَيْنِ وَثَالِثُهَا: الْبَلَاغُ الْمُظْهِرُ لِلْحَقِّ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلُوا يَحِقُّ هُنَالِكَ الهلاك."(53)

ويكشف ابن عاشور عن مرامٍ آخر من بيان الرسل في قولهم: (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) فيقول: "وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ فَذَلِكَ وَعْظٌ وَعَظُوا بِهِ الْقَوْمَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا مَنْفَعَةَ تَنْجَرُّ لَهُمْ مِنْ إِيمَانِ الْقَوْمِ ، وَإِعْلَانٌ لَهُمْ بِالتَّبَرُّؤِ مِنْ عُهْدَةِ بَقَاءِ الْقَوْمِ عَلَى الشِّرْكِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُثِيرَ النَّظَرَ الْفِكْرِيَّ فِي نُفُوسِ الْقَوْمِ. والْبَلاغُ اسْمُ مَصْدَرٍ مِنْ أَبْلَغَ إِذَا أَوْصَلَ خَبَرًا ، قَالَ تَعَالَى: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ [الشورى: 48] وَقَالَ: هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ [إِبْرَاهِيم: 52] . وَلَا يُسْتَعْمَلُ الْبَلَاغُ فِي إِيصَالِ الذَّوَاتِ. وَالْفُقَهَاءُ يَقُولُونَ فِي كَرَاءِ السُّفُنِ وَالرَّوَاحِلِ: إِنَّ مِنْهُ مَا هُوَ عَلَى الْبَلَاغِ ، يُرِيدُونَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ بَيْنَ الْمَكْرِي وَ الْمُكْتَرِي. و الْمُبِينُ وَصْفٌ لِلْبَلَاغِ ، أَيِ الْبَلَاغِ الْوَاضِحِ دَلَالَةً وَهُوَ الَّذِي لَا إِيهَامَ فِيهِ وَلَا مواربة." (54) وممن قال أيضًا بقصد الوعيد للقوم وحثهم على التفكر والتذكر ابن عطية ، وأبو حيان ، والنيسابوري. (55)

المبحث الخامس: الموقف النهائي لأصحاب القرية كما عبرت عنه المفردة.

جاء رد أصحاب القرية على الرسل بقولهم: "قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " ، وقد اشتمل هذا الرد على ثلاثة تراكيب ، لا يمكن فصلها من السياق العام إلا لمتطلبات النظر اللغوي التحليلي:

الأول: خبري مؤكد: "إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ "

الثاني: إنشائي مؤكد:" لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ "

الثالث: خبري مؤكد:" وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ"

وقبل الدخول في تحليل هذه التراكيب ودور الكلمة في كل منها ، نتساءل: ما الذي يجعل الحوار يصل بين الطرفين إلى هذا المستوى: رميهم بتهمة (التطير) ، ثم التهديد بالرجم والتعذيب ؟ وما الذي ألجأ القوم إلي التوكيد وتقوية تراكيبهم ؟

لجأ القوم إلى ذلك بعد أن أعيتهم الحيل ، وحاصرتهم رسل الله بما يدحض حججهم في إعراضهم عن المرسلين ، ورميهم بفرية الكذب. فلمَّا لاح الحق وانكشف الغطاء تحصنوا خلف هذه الأقاويل ربما لزعزعة الثبات في نفوس الرسل ، وإلقاء شيئًا من الرعب والخوف جراء هذه التهديدات. لكن فات القوم أن المرسلين من الله قد أعدوا إعدادًا خاصا لهذه المهام ، قال جل ثناؤه مخاطبا موسى عليه السلام" وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي" طه:39 ، " وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي " طه:٤١ ، فلن يثنيهم شيء عن أداء مهمتهم.

ويمكن أن نقرأ في هذه الردود بعدين الأول: نفسي ، تمثل في ضيق القوم بدعوة الرسل ، والثاني: فكري ، نراه في فشلهم في الحوار و افتقارهم إلى حجة قوية يدافعون بها عن رؤيتهم في النكران والجحود. ومن ثَّم رموهم بالشؤم وهددوهم بالرجم والتعذيب ، و هذا إشهار لإفلاس هؤلاء المحاوَرين ، وإقرار بقوة حجة المحاوِرين ؛ لأن هذا هو كل ما يمتلكونه وما يمكنهم أن يدفعوا به.

افتتح القوم آخر ردودهم على تأكيدات المرسلين السابقة التي أبانت لهم حقيقتهم ، وحددت مهمتهم: " قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17)" والتركيب جاء في صورة الجملة الاسمية المؤكدة ، فقد تصدرت الجملة أداة التوكيد (إنَّ) التي لحقها ضمير المتكلمين الجمع (نا) الذي لحق أيضا جملة الخبر الفعلية ذات الفعل الماضي بما يفيد الثبوت والتحقق ، حيث يرسل هذا القول منهم رسالة مؤكدة عن عموم القضية التي يحملها هذا التركيب ، والتي دفع بها المتحاوَرين ضمن الأوراق الأخيرة لهم على مائدة التحاور. وهي تكشف عن معتقد شعبي تجذَّر في نفوس أهل هذه القرية وغيرها من الأمم ، حاولت الرسل اقتلاعه لتعارضه مع العقيدة الحنيفية السمحاء.

ويراجع الرازي أقاويل الفريقين ليظهر كيف كانت الردود يأخذ بعضها بعناق بعض ، فيقول: " ثُمَّ كَانَ جَوَابُهُمْ بَعْدَ هَذَا أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ مِنَ الرُّسُلِ الْمُبَالَغَةُ فِي الْبَلَاغِ ظَهَرَ مِنْهُمُ الْغُلُوُّ فِي التَّكْذِيبِ ، فَلَمَّا قَالَ الْمُرْسَلُونَ: إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ [يس:

14] قالوا: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ [يس: 15] وَلَمَّا أَكَّدَ الرُّسُلُ قَوْلَهُمْ بِالْيَمِينِ حَيْثُ قَالُوا: رَبُّنا يَعْلَمُ [يس: 16] أَكَّدُوا قَوْلَهُمْ بِالتَّطَيُّرِ بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْأَوَّلِ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ، وَفِي الثَّانِي صِرْتُمْ مُصِرِّينَ عَلَى الْكَذِبِ ، حَالِفِينَ مُقْسِمِينَ عَلَيْهِ ، وَ «الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلَاقِعَ» فَتَشَاءَمْنَا بِكُمْ ثَانِيًا."(56)

أما علة التشاؤم في نظر القوم فقد أشار بعض التفاسير إلى إن أهل هذه القرية أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين فلذلك قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ، وقال آخرون: احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه ، ورأي جمع من المفسرين أن تطير هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس ، وهذا على نحو تطير قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى نحو ما خوطب به موسى." (57)

ويلتفت ابن عاشور في تفسيره إلي تحليل السبب الذي دفع القوم إلى هذه المقولة من وجهة نفسية فيقول: "لَمَّا غَلَبَتْهُمُ الْحُجَّةُ من كل جَانب وَبَلَغَ قَوْلُ الرُّسُلِ وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [يس: 17] مِنْ نُفُوسِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ مَبْلَغَ الْخَجَلِ وَالِاسْتِكَانَةِ مِنْ إِخْفَاقِ الْحُجَّةِ وَالِاتِّسَامِ بِمِيسَمِ الْمُكَابَرَةِ وَالْمُنَابَذَةِ لِلَّذِينَ يَبْتَغُونَ نَفْعَهُمُ انْصَرَفُوا إِلَى سَتْرِ خَجَلِهِمْ وَانْفِحَامِهِمْ بِتَلْفِيفِ السَّبَبِ لِرَفْضِ دَعْوَتِهِمْ بِمَا حَسِبُوهُ مُقْنِعًا لِلرُّسُلِ بِتَرْكِ دَعْوَتِهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مَا يَدَّعُونَهُ شَيْءٌ خَفِيٌّ لَا قِبَلَ لِغَيْرِ مُخْتَرِعِهِ بِالْمُنَازَعَةِ فِيهِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ تَطَيَّرُوا بِهِمْ وَلَحِقَهُمْ مِنْهُم شُؤْم."(58)

ثم ينتقل إلى تحليل تلك المقولة من وجهة مثيولوجية ونفسية قائلا: "وَالتَّطَيُّرُ فِي الْأَصْلِ: تَكَلُّفُ مُعْرِفَةِ دَلَالَةِ الطَّيْرِ عَلَى خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مِنْ تَعَرُّضِ نَوْعِ الطَّيْرِ وَمِنْ صِفَةِ انْدِفَاعِهِ أَوْ مَجِيئِهِ ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ حَدَثٍ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ أَحَدٌ أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا فِي لَحَاقِ شَرٍّ بِهِ فَصَارَ مُرَادِفًا لِلتَّشَاؤُمِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَإِنَّمَا الطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّرَ» وَبِهَذَا الْمَعْنَى أُطْلِقَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، أَيْ قَالُوا: إِنَّا تَشَاءَمْنَا بِكُمْ مَعْنَى بِكُمْ بِدَعْوَتِكُمْ ، وَلَيْسُوا يُرِيدُونَ أَنَّ الْقَرْيَةَ حَلَّ بِهَا حَادِثُ سُوءٍ يَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ قَحْطٍ أَوْ وَبَاءٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضُّرِّ الْعَامِّ مُقَارَنٌ لِحُلُولِ الرُّسُلِ أَوْ لِدَعْوَتِهِمْ ، وَقَدْ جَوَّزَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْلُو فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ. وَمِنْ عَادَةِ أَصْحَابِ الْأَوْهَامِ السَّخِيفَةِ وَالْعُقُولِ الْمَأْفُونَةِ أَنْ يُسْنِدُوا الْأَحْدَاثَ إِلَى مُقَارَنَاتِهَا دُونَ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا ثُمَّ أَنْ يَتَخَيَّرُوا فِي تَعْيِينِ مُقَارَنَاتِ الشُّؤْمِ أُمُورًا لَا تُلَائِمُ شَهَوَاتِهِمْ وَمَا يَنْفِرُونَ مِنْهُ ، وَأَنْ يُعَيِّنُوا مِنَ الْمُقَارَنَاتِ لِلتَّيَمُّنِ مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ وَتَقْبَلُهُ طِبَاعُهُمْ يُغَالِطُونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ شَأْنُ أَهْلِ الْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ ، فَمَرْجِعُ الْعِلَلِ كُلِّهَا لَدَيْهِمْ إِلَى أَحْوَالِ نُفُوسِهِمْ وَرَغَائِبِهِمْ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا

هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ [الْأَعْرَاف: 131] وَحَكَى عَنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ [النِّسَاء: 78]. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا أَرَادُوا بِالشُّؤْمِ أَنَّ دَعْوَتَهُمْ أَحْدَثَتْ مُشَاجَرَاتٍ وَاخْتِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَلَمَّا تَمَالَأَتْ نُفُوسُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ عَلَى أَنَّ تَعْلِيلَ كُلِّ حَدَثٍ مَكْرُوهٍ يُصِيبُ أَحَدَهُمْ بِأَنَّهُ مِنْ جَرَّاءِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ أَيْ يَقُولُهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَوِ الْجَمْعُ فَيُوَافِقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ أَهْلِ الْقَرْيَة."(59)

أما التركيب الثاني في مقولة القوم للمرسلين فكانت تهديدًا معلقًا لهم جاء في صورة الإنشاء المؤكد" لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ" ، وقد سبق أن وُجِّه هذا التهديد إلي خليل الله إبراهيم من أبيه عندما ألحَّ في دعوته للإسلام ، وفشل آزر في الحوار الذي جرى بينهما.

لقد حرص المتكلم على تخير المضارع زمنًا لفعل العقوبة ، مع الفعل (يرجم) ؛ وفي ذلك من الاستمرارية والتجدد ما يشير إلى نوعية هذه العقوبة وقسوتها ، وخلوا المنفذين لها من أي رحمة أو شفقة. ناهيك عما حُشِدَ في هذا التركيب من وسائل التقوية ـ بدءًا من مجيء اللام الموطئة للقسم في بدايته ، وما تليها من مؤكدات تصدرت الفعل (نَرْجُمَنَّكُمْ) ولحقته: اللام ونون التوكيد الثقيلة ، إلى إسناد فعل القائم بالعقوبة إلي جماعة المتكلمين ، أو إلى كل أهل القرية ـ ما يضمن وصول رسالة للمرسلين ذات مضمون مشحون بالامتعاض ، والعزم على إسكات صوت الحق سواء تحقق هذا الهدف بالتخويف والتهديد أو بتنفيذ التهديد فعليًا.

وقد علق القوم تنفيذ تهديداتهم للرسل على كفِّهم عن الدعوة ، وفي ذلك ما يكشف عن ضعف موقفهم إزاء حجج المرسلين الدعوية ، وإقرار ضمني منهم بقوة حجج المرسلين وهو ما حاولوا تعويضه بحشد وسائل التقوية في التركيب الذي حمل رسالة التهديد. وكانت الدافع لهم من وراء هذا كله ما عبَّر عنه التركيب الذي سبق هذا التهديد:" إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ " ، وهو زعمهم الذي تستروا خلفه لما فشلوا في الحوار. وقد اختلف العلماء في المقصود بالرجم هنا ما بين العقوبات التالية: الشتم ، الضرب بالحجارة ، والطرد ، وأشدها القتل.(60)

أما التركيب الثالث في هذه الآية وهو" وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " ، فهو مكمل لتهديدات القوم للرسل وقد عطف على ما سبقه ، وتضمنت عناصره ذات وسائل التقوية التي سبقت وأعقبت الفعل (لَنَرْجُمَنَّكُم) في التركيب الثاني ، إلا أن الفاعل هنا جاء اسمًا ظاهرًا ، وقد تأخر ليتوسط الجار والمجرور (مِنَّا) بينه وبين فعله.

ففضلا عن دور وسائل التوكيد الذي لعبته في فعل التهديد الأول (لَنَرْجُمَنَّكُم) والذي دلالاته واضحة في التهديد الثاني (وَلَيَمَسَّنَّكُمْ) نجد لمجيء حرف السين مضعفًا مؤشرًا ما يُؤذن بتأكيد نزول الفاعل بالمفعول وتمكنه منه. وكان لتقدم الجار والمجرور (مِنَّا) ما يؤكد

على هُوية القائمين بالفعل ، أما مجيء الفاعل (عَذَابٌ) نكرة وتأخره ، ففيه دلالة الترهيب والتهويل لعِظَمِ هذا العذاب ، فضلا عما في التأخير من جذب للانتباه. ووصف العذاب بأنه (أَلِيمٌ) " أَنَّهُ بِمَعْنَى الْمُؤْلِمِ ، وَالْفَعِيلُ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ قَلِيلٌ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ هُوَ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ: عِيشَةٍ راضِيَةٍ [الْحَاقَّةِ: 21] أَيْ ذَاتِ رِضًا ، فَالْعَذَابُ الْأَلِيمُ هُوَ ذُو أَلَمٍ." (61)

وقد عرض علماء التفسير لعدة معانٍ للفعل وفاعله منها: " لينالنكم منَّا عذاب موجع ، القتل ، التعذيب المؤلم قبل القتل ، التَّعْذِيبُ الْمُؤْلِمُ قَبْلَ الْقَتْلِ كَالسَّلْخِ وَالْقَطْعِ وَالصَّلْبِ ، ليصيبنكم عذاب النار وهو أشد عذاب ، الْحَرِيقُ ، ليصيبنّكم منا عذاب الحريق" (62)

ويربط الرازي بين جملتي التهديد (لَنَرْجُمَنَّكُمْ) ، و(لَيَمَسَّنَّكُمْ) ، قائلا: " وَقَوْلُهُ لَنَرْجُمَنَّكُمْ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا لَنَشْتِمَنَّكُمْ مِنَ الرَّجْمِ بِالْقَوْلِ وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: وَلَيَمَسَّنَّكُمْ تَرَقٍّ كَأَنَّهُمْ قَالُوا وَلَا يَكْتَفِي بِالشَّتْمِ ، بَلْ يُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى الضَّرْبِ وَالْإِيلَامِ الْحِسِّيِّ وَثَانِيهِمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الرَّجْمَ بِالْحِجَارَةِ ، وَحِينَئِذٍ فَقَوْلُهُ: وَلَيَمَسَّنَّكُمْ بَيَانٌ لِلرَّجْمِ ، يَعْنِي وَلَا يَكُونُ الرَّجْمُ رَجْمًا قَلِيلًا نَرْجُمُكُمْ بِحَجَرٍ وَحَجَرَيْنِ ، بَلْ نُدِيمُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ إِلَى الْمَوْتِ وَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ بِسَبَبِ الرَّجْمِ عَذَابٌ مِنَّا أَلِيمٌ."(63)

المبحث السادس: توظيف المفردة في رد الرسل على تهديدات القوم.

تُري ماذا سيكون رد الرسل بعد هذا؟ لقد صمَّ القوم آذانهم عن سماع دعوة الحق ، بل ورموا رسل الله بفرية كاذبة ، وتطور الأمر إلي تهديدهم بالرجم والعذاب الأليم! جاء الرد من رسل الله على فرية القوم و تهديداتهم عبر تراكيب ثلاثة في هذه الآية: " قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ"

التركيب الأول: " طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ "

التركيب الثاني: " أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ"

التركيب الثالث: " بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ "

جاء الرد الأول من الرسل بدفع الفرية التي رموهم بها هؤلاء القوم ، وجاء في صيغة الجملة الاسمية ، وقد أضافوا ضمير المخاطبين العائد إلى القوم إلى المبتدأ بما يوحي بالتصاق هذه الصفة بهم وعدم انفكاكها عنهم ، وجاء الخبر ظرفًا مضافًا لذات الضمير بما يدلل على ديمومته معهم ، ووجوده أينما حلوا. وكان ذلك كافيًا و مفحمًا المخاطبين. ولذا لم يحتج السياق إلى شيء من وسائل التوكيد.

قال الطبري: "أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إن أصابكم سوء فيما كتب عليكم، وسبق لكم من الله."(64) ونقل الماتريدي المعنى التالي: "تشاؤمكم معكم أين كنتم وحيثما كنتم، ما دمتم على ما أنتم عليه."(65) و قد ربط البغوي بين تعنت والقوم وإصراره على الكفر وبين ما أصابهم فقال:" قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ، يَعْنِي شُؤْمُكُمْ مَعَكُمْ بِكُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ يَعْنِي أَصَابَكُمِ الشُّؤْمُ مِنْ قِبَلِكُمْ."(66)

ويميل الباحث مع ما سجله صاحب الظلال ـ يرحمة الله ـ في هذا المقام، حيث يقول: " القول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية. والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم، متوقف على كسبهم وعملهم. وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرا أو أن يجعلوه شرا. فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه، ومن خلال اتجاهه، ومن خلال عمله. وهو يحمل طائره معه. هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه، أو التشاؤم بالأمكنة، أو التشاؤم بالكلمات.. فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم!" (67)

أما التركيب الثاني في رد الرسل فهو قولهم "أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ"، وهو استفهام انكاري توبيخي: "قالوا: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بِطَرِيقَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ الدَّاخِلِ عَلَى إِنْ الشَّرْطِيَّةِ، فَهُوَ اسْتِفْهَامٌ عَلَى مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّابِقُ، وَقُيِّدَ ذَلِكَ الْمَحْذُوفُ بِالشَّرْطِ الَّذِي حُذِفَ جَوَابُهُ أَيْضًا اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهُ، وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، إِلَّا أَنَّ سِيبَوَيْهِ يُرَجِّحُ إِذَا اجْتَمَعَ الِاسْتِفْهَامُ وَالشَّرْطُ أَنْ يُؤْتَى بِمَا يُنَاسِبُ الِاسْتِفْهَامَ لَوْ صُرِّحَ بِهِ، فَكَذَلِكَ لَمَّا حُذِفَ يَكُونُ الْمُقَدَّرُ مُنَاسِبًا لِلِاسْتِفْهَامِ. وَالتَّقْدِيرُ: أَتَتَشَاءَمُونَ بِالتَّذْكِيرِ إِنْ ذُكِّرْتُمْ، "(68)

وهناك قراءة ثانية نقلها أبو حيان بقوله: "وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ أَيْضًا، وَالْحَسَنُ أَيْضًا، وَقَتَادَةُ، وَعِيسَى الْهَمْدَانِيُّ، وَالْأَعْمَشُ: أَيْنَ بِهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ وَيَاءٍ سَاكِنَةٍ، وَفَتْحِ النُّونِ ظَرْفَ مَكَانٍ. وَرُوِيَ هَذَا عَنْ عِيسَى الثَّقَفِيِّ أَيْضًا..... وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى مَعْنَى: أَ لَإِنْ ذُكِّرْتُمْ تَطَيَّرْتُمْ، فَإِنْ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَكَذَلِكَ الْهَمْزَةُ الْوَاحِدَةُ الْمَفْتُوحَةُ وَالَّتِي بِمَدَّةٍ قَبْلَ الْهَمْزَةِ الْمَفْتُوحَةِ وَقِرَاءَةُ الْهَمْزَةِ الْمَكْسُورَةِ وَحْدَهَا، فَحَرْفُ شَرْطٍ بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ، أَيْ إِنْ ذُكِّرْتُمْ تطيرتم، الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ الْأَخِيرَةُ أَيْنَ فِيهَا ظَرْفُ أَدَاةِ الشَّرْطِ، حُذِفَ جَزَاؤُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ وَتَقْدِيرُهُ: أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ صَحِبَكُمْ طَائِرُكُمْ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: طائِرُكُمْ مَعَكُمْ."(69)

ثم يأتي التركيب الثالث ليكون خاتمة لهذا الحوار بين رسل الله الثلاثة وبين أصحاب هذه القرية قائلين لهم"" بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ "، وقد تصدر هذا التركيب حرف الإضراب (بل) وهي في حال تصدرها لجملة كانت إضرابا عما قبلها، إما على جهة الإبطال، وإما على جهة الترك للانتقال من غير إبطال.(70) وقد كان المالقي أكثر تحديدا حينما أشار إلى أن من أغراض توظيف هذا الحرف البَداء، وهو وضع شيء على معنى بالقصد، ثم يتبين أن الأوَلى غير ذلك، ففي المدح يؤتي بأحسن، وفي الذم يؤتى بأقبح.(71) و هذا الغرض لا يتعارض مع يفهم من التراكيب الثلاثة التي حوتها الآية الكريمة. فقد رد الرسل تهمة التطير عليهم ـ كما سبق بيانه ـ وتسألوا في استنكار وتوبيخ أَ لأننا ذكرناكم الحق هددتمونا واتهمتمونا بالشؤم؟ إن تطيركم معكم بسبب كفركم، بعد هذا الرد يتصاعد خطاب التعنيف والتقريع والذم لهؤلاء فيؤتى بأقبح مما سبق وهو فضحهم بحقيقه أمرهم وهي أنهم "قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ".

ويستنبط الرازي عدة احتمالات للمعاني يمكن الخروج بها هنا فيقول: "فَإِنْ قِيلَ بَلْ لِلْإِضْرَابِ فَمَا الْأَمْرُ الْمُضْرَبُ عَنْهُ؟ نَقُولُ يُحْتَمَلُ أن يقال قوله: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ وَارِدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَنِسْبَتِهِمُ الرُّسُلَ إِلَى الكذب بقولهم: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ [يس: 15] فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: أَنَحْنُ كَاذِبُونَ وَإِنْ جِئْنَا بِالْبُرْهَانِ، لَا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ أَنَحْنُ مَشْؤُومُونَ، وَإِنْ جِئْنَا بِبَيَانِ صِحَّةِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، لَا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ أَنَحْنُ مُسْتَحِقُّونَ لِلرَّجْمِ وَالْإِيلَامِ، وَإِنْ بَيَّنَّا صِحَّةَ مَا أَتَيْنَا بِهِ، لَا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ."(72).

إن تعدد المعني الذي أثرى به الرازي تفسيره لهذه الآية، إنما هو نتيجة تتبعه لمقولات القوم السابقة التي وُجهت للرسل، وهذا يكشف عن دقة النظر وشموله في الربط بين التراكيب في هذا النسيج الرباني المحكم، و مما أبسغ على هذه المعاني ـ أو الاحتمالات كما وسمها الرازي ـ مسحة الإعجاب والروعة بَلْهَ القبول والجواز، إنما هي المعاني المتعددة التي زخرت بها كلمة "مُسْرِفُونَ " في سياقها الشريف. والتي أفرد لها سادتنا المفسرون مساحات من أسطر مؤلفاتهم، سواء من قَبِل الرازي أو من أتَوا بعده.

وتلك جملة من المعاني التي عرض لها المفسرون للكلمة: مسْرَفُون فِي الْمَعْصِيَةِ، مُسْرِفُونَ فِي تَطَيُّرِكُمْ، مُسْرِفُونَ فِي كُفْرِكُمْ، مفسدون، أهل معاصٍ لله وآثامٍ، مشركون، مشركون مجاوزون الحد، قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم، عادتكم الإسراف في العصيان، قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أي في الشؤم والعدوان ، مجاوزون الحد في العصيان، مُجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِي ضَلَالِكُمْ، تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير.(73)

و لا يخفي ما تحمله الجملة الاسمية هنا من دلالة من تقرير وإثبات لحقيقة هؤلاء القوم ، ويرى العلامة ابن عاشور أن: " فِي ذِكْرِ كَلِمَةِ قَوْمٌ إِيذَانٌ بِأَنَّ الْإِسْرَافَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُمْ وَبِهِ قِوَامُ قَوْمِيَّتِهِمْ." (74)

وعبَّر المرسلون باسم الفاعل "مُسْرِفُونَ " دون غيرها من الصيغ لما في ذلك من معاني الحدوث والتجدد وليست معاني الديمومة والثبات ببعيدة عن ذلك ،(75) الأمر الذي يشير إلى أن الداء أصيل ومستشرٍ فيهم من فترة ليست بالقصيرة. وهذا ـ كما قال المراغي ـ لا يخفى ما فيه من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم." (76)

وهكذا وظفت المفردة القرآنية في نقل واقع الحوار ودقائقه بين الرسل وأصحاب القرية ، وقبلها قدمت هذه المفردة في سياقها داخل التراكيب تهيئة عن موضوع هذا الحوار.

النتائج:

يسر الله تعالي لي الوصول إلى النتائج الآتية:

1ـ وُظفت المفردة القرآنية في نقل مشاهد معبرة ، و جولات من الحوار بين المرسلين وأصحاب القرية.

2ـ استخدم طرفا الحوار مفردات مستعارة من كليهما لبناء حجج يتعبأ بها ؛ ليحرز انتصارًا على الطرف الآخر.

3ـ عبرت مفردات في نهاية ردود أصحاب القرية عن إفلاسهم الفكري وعدم قدرتهم على مجابهة الحجة بالحجة ، من خلال رمي الرسل بفرية التطير وتهديدهم بالرجم والتعذيب.

4ـ حاول الرسل استمالة القوم من خلال توظيف بعض المفردات التي لها قدر مشترك من الفهم في بعض المسلمات العقدية ، بما يقوي موقفهم في الحوار.

5ـ دافع الرسل عن الفرية التي حاول أصحاب القرية رميهم بها ، من خلال مفردات وظفت داخل حجج عقلية ، مع الاستعانة بعناصر للتقوية أو التوكيد.

6ـ كان للثراء اللغوي الذي تسلح به السادة المفسرون عند تفسيرهم لكتاب الله أثرٌ واضحٌ في تعدد المعاني واتساع دوائر الدلالات للألفاظ والتراكيب.

7 ـ سبق بعض علماء التفسير علماء تحليل الخطاب المحدثين عندما تحدثوا عن مراعاة أحوال المتكلمين ، وأحوال السامعين عند وقوفهم عند بعض الآيات في المثل.

8ـ ترك لنا السادة المفسرون ، تراثا علميا ثريا ، يشير إلى دقة النظر وسعة الفكر ، وحصافة الرأي ، وكانت للنظرات اللغوية الثاقبة لدور الكلمة داخل التراكيب القرآنية عميق الأثر في إنجاز هذا التراث العلمي الضخم.

الهوامش:

(1) سميح عاطف الزين: الأمثال في القرآن الكريم ، دار الكتاب اللبناني/دار الكتاب المصري ، بيروت/ القاهرة ، ط 2(1421ـ 2000) ، ص 33 ،34.

(2) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، ج26 ،ص259.

(3) انظر: الشوكاني: فتح القدير ، ج4 ،ص417.

(4) أبوالسعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج 7، ص161.

(5) الماتريدي: تأويلات أهل السنة ، تحقيق: د.مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 (142هـ- 2005 م) ج 8 ، ص509.

(6) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص 358.

(7) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ، ج16 ، ص103.

(8) انظر في ذلك: مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان ، ج3 ،ص575. و الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن 500/20.و الماتريدي: تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي ، ج8، ص509. والسمرقندي: بحر العلوم ، ج3، ص 118. و الماوردي: النكت والعيون ، ج5، ص10. و البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تفسير البغوي ، ج 4، ص7. و الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، ج 26 ، ص260. والقرطبي: تفسير القرطبي ، ج15 ،ص14. والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج4 ،ص 264. وأبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج9، ص52. والنيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ج5، ص528. وأبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ،ج 7 ،ص161. والشوكاني: فتح القدير ، ص 4، ص 417 . والخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج4 ،ص4.

(9) الثعالبي (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، ت 875هـ): الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 (1418هـ) ، ج 5 ،ص9.

(10) سيد قطب: في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت/ القاهرة ، ط 17(1412هـ) 2961/5.

(11) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ج1 ،ص 659.

(12) الشهاب(شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ،ت. 1069هـ): حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي ، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي ، دار صادر ، بيروت ، ج 7، ص233.

(13) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ، ج16 ، ص103 ، 104.

(14) المرجع السابق ، ج16 ، ص104.

(15)الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ج26 ، ص260.

(16)الشوكاني: فتح القدير ، ج 4، ص 417.

(17) الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ، ص260.

(18) أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج9 ، ص53.
(19)الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص 360.
(20)الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، ج26 ، ص260.
(21) أبو حيان :البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص53.
(22)الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ، ج20 ، ص500 ، 501.
(23) منهم على سبيل المثال: الماتريدي: تأويلات أهل السنة ، ج8 ، ص 509- 510. و السمرقندي: بحر العلوم ، ج2 ، ص 118. والثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، ج 8 ص125. والماوردي: النكت والعيون ، ج5 ، ص10. والبغوي: معالم التنزيل ، ج4 ، ص10. والزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج4 ، ص8. والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج4 ، ص264. والنسفي: مدارك التنزيل و حقائق التأويل ، ج2 ، ص99.
(24) أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص53.
(25) الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج4 ، ص8.
(26) النسفي: مدارك التنزيل و حقائق التأويل ، ج2 ، ص99.
(27) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج4 ، ص264.
(28) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج20 ،ص280.
(29) د.سعيد بحيري: ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (1995م) ص21.
(30) انظر: د. عبد الرحمن أيوب: دراسات نقدية في النحو العربي ، مؤسسة الصباح ، الكويت (د.ت) ص129.
(31) د. أحمد محمود درويش: التوظيف الدلالي لصيغ المشتق ، مشاهد سورة القمر نموذجًا ، في: مجلةكلية الآداب/ جامعة المنوفية ، إصدار خاص (يناير 2015م) ، ص 11.
(32) المرادي (الحسن بن قاسم المرادي ت 749): الجنى الداني في حروف المعاني ، تحقيق: فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 (1413/ 1993) ، ص323.
(33) د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية ، ص47.
(34) عبد القاهر الجرجاني: (أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني. ت471ه): دلائل الإعجاز ، تعليق: محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط3(1413ه/ 1992م) ، ص 332. و د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية ، ص47
(35) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(36) الماوردي: تفسير الماوردي ـ النكت والعيون ، ج 5 ، ص 10-011
(37) سيد قطب: في ظلال القرآن ، ج5 ، ص 2961.
(38) المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني ، ص316 ـ317.
(39) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ج4 ، ص 418.
(40) الشوكاني: فتح القدير ، ج 4 ، ص 0418
(41) الماوردي: تفسير الماوردي ـ النكت والعيون ، ج 5 ، ص 011
(42) الشهاب الحنفي: حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي ، ج 7 ، ص233.
(43) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(44) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.

(45) انظر : المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني ، ص 208 وما بعدها.
(46) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 333.
(47) الماوردي: تفسير الماوردي ـ النكت والعيون ، ج 5 ، ص 011
(48) انظر: د. مصطفى قنبر: الحوار مع الآخر ، مقاربة لغوية لآلياته وعناصره ، بحث مقبول للنشر في مجلة: التربية ، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.
(49) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(50) المرجع السابق ، ج26 ،ص261.
(51) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ج 5 ،ص 528. وانظر: أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج 7 ، ص162. و الشوكاني: فتح القدير ، ج4 ، ص418. و الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج 22 ، ص 362. و القزويني (محمد بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو المعالي ، جلال الدين القزويني الشافعي ، ت. 739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط3 (د.ت.) ج1 ، ص70.
(52) الماوردي: تفسير الماوردي ـ النكت والعيون ، ج 5 ، ص 011
(53) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(54) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج 22 ، ص 362.
(55) انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ج4 ، ص 449. و أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص53. . و النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ج 5 ،ص
(56) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(57) انظر على سبيل المثال: الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، ج5 ، ص9. و أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص 53. و الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج 4 ، ص 9. و النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج3 ، ص100. والقرطبي: تفسير القرطبي ، ج16 ،15. و ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ج4 ، ص 44
(58) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص362.
(59) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص362 ، 363.
(60) انظر: والطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ، ج20 ، ص 502. والسمرقندي : بحر العلوم ، ج3 ، ص 12. و البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ، ج4 ، ص10. و ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ج4 ، ص 449. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، ج15 ، ص16. والنسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج3 ، ص100. و النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ج5 ، ص529. والبقاعي: نظم الدرر ، ج16 ، ص108. والخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج4 ، ص6.
(61) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(62) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ، ج20 ، ص 502. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، ج15 ، ص16. والنسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ج3 ، ص100. و أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص 54. الماوردي: تفسير الماوردي ــ النكت والعيون ، ج 5 ، ص 012و ابن عجيبة: (أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي ، ت 1224هـ): البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي ، القاهرة (1419هـ) ، ج4 ، ص536.
(63) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، ج26 ،ص261.
(64) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ، ج20 ، ص 502.

(65) الماتريدي: تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي ، ج8 ، ص510.
(66) البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ، ج4 ، ص11.
(67) سيد قطب: في ظلال القرآن ، ج5 ، ص 2962.
(68) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص364.
(69) أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج 9 ، ص54 ، 55.
(70) المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني ، ص235.
(71) المالقي : رصف المباني في شرح حروف المعاني ، ص154 ،153.
(72) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، ج26 ،ص262.
(73) انظر: تفسير الطبري : جامع البيان ، ج20 ، ص503 و الماوردي: النكت والعيون ، ج 5 ، ص12. و السمرقندي: بحر العلوم ، ج3 ،ص 120. و الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، ج8 ، ص126. والبغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ، ج4 ، ص11. والزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ج4 ، ص9. و القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، ج15 ، ص17. والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج4 ، ص26. والنسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ص3 ، ج 100. و أبو حيان: البحر المحيط في التفسير ، ج9 ، ص55. و أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج7 ، ص16. و القاسمي: محاسن التأويل ، ج8 ، ص 177. و سيد قطب: في ظلال القرآن ، ج5 ، ص 2962. و أحمد بن مصطفى المراغي: تفسير المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، ط1(1365 هـ - 1946 م) ، ج22 ، ص153.
(74) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج22 ، ص365 .
(75) د. أحمد محمود درويش: التوظيف الدلالي لصيغ المشتق ، ص9.
(76) المراغي : تفسير المراغي ، ج22 ، ص153.